٣ ـ فى أرجاء سيناء

للدكتور عبد الوهاب عزام

دير سنت كترين

— ١ —

عطفنا إلى اليسار فى شعب من وادى الشيخ ، فررنا بأبنية قليلة اللاط كأنها حجارة مرصوصة ، وعرفنا من بعدُ أنها كانت للجنود الذين رافقوا عباس باشا الأول حينما أقام فى هذه البقعة من سيناء ، وقد رأينا بناء كبيراً على جبل شامخ قريب من الدير وهو قصر عباس باشا ، وكان يحب الإقامة فى البرارى ، ولا سيما فى برّية سيناء . وبلغنا الدير قبيل الغروب ، فإذا حديقة إلى اليمين ذات سور قصير ، بينها وبين الجبل طريق ضيقة تؤدى إلى الدير

والدير بناء واسع عال يحيط به سور متين علوه أحد عشر متراً

وفى جداره الغربى باب صغير دخلناه إلى باب آخر وراءه باب ثالث إلى اليمين . وهذا السور الضخم ، وهذه الأبواب الصغيرة المتتابعة تدل على ما كان يخشاه أهل الدير من غارات البدو وغيرهم فى العصور السالفة . وللدير فى أعلى جداره الشمالى باب عليه وقاية من الخشب أعدّ للدخول إلى الدير وقت الخوف . فيرفع الداخل فى سلة معلقة ترفعها حبال على بكرة كبيرة تسمى « الدوّار » ، وتشد الحبال إلى عمود له ترس كبير يدور به عدة رجال ، فتلتف الحبال وتمرّ على البكرة فترفع السلة ، ومن هذا الباب أدخلت أمتعتنا

دخلنا إلى أبنية كثيرة لا يتيسّر وصفها ، فإنها لم تخطّ فى وقت واحد ، بل بنيت فى عصور مختلفة . صعدنا درجاً إلى مستوى ، ثم صعدنا مرتين فلقينا رئيس الدير فدخلنا إلى حجرة كبيرة ، فجلسنا نتحدث وقدّمت إلينا القهوة على الطريقة المصرية وعرض علينا النبيذ ، والنبيذ يصنع فى الدير وفى الواحات التابعة له فى أنحاء سيناء ، وهو من التمر ، ولخمور الأديرة صيت ذائع فى الشعر العربى ، ومن أجل هذا كثر ذكر الأديار فى الشعر منذ عهد أبى نواس ، كان الشعراء يقصدونها لبعدها عن البلدان ونزاهتها وما فيها من خمور .

ثم خرجنا من الحجرة لنرى الحجر التى أعدّت لنزولنا ، فصعدنا إلى طبقة ثم أخرى فى الجهة الغربية ، فإذا مكتب رئيس الدير ، ثم غرفة كبيرة للجلوس والمائدة ، ثم مطبخ ، ثم صفّ من الحجر أمامها طنف يفضى إلى الجناح الجنوبى من الدير ، وقد عُمّر حديثاً بالأسمنت المسلح فكان شذوذاً فى هذه الأبنية العتيقة

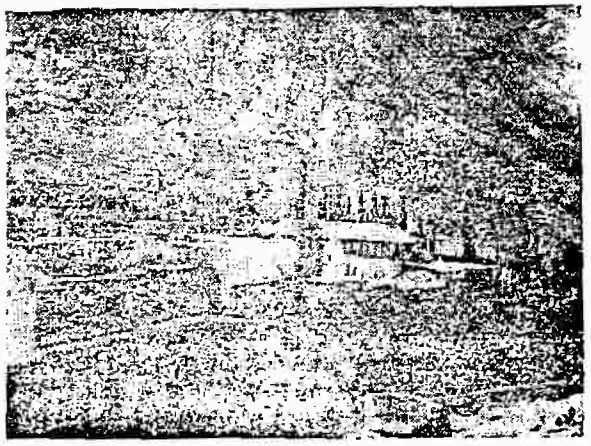

منظر عام للدير

ويُفضى الدرج الصاعد إلى هذه الطبقات العليا إلى سطح تحده من الشمال والغرب شرفات السور المطلة على حديقة الدير ومدخله . وهناك مدافع صغيرة يقال إن بعضها من أيام السلطان سليم ، وقد أهديت إلى الدير لمدافعة المغيرين

أكرم القوم مثوانا فأنزلونا فى عشر حجرات فى كل حجرة سريران . فأمضينا ليلتنا مستريحين

— ٢ —

بنى هذا الدير القيصر جستينيان حوالى سنة ٥٤٥ م ، باسم كترين زوجه التى عرفت من بعد باسم سنتا كترينا ، فى موضع يعلو سطح البحر بنحو خمسة آلاف قدم ، وهو يشبه مربعاً طول ضلعه ثمانون متراً . وله أوقاف كثيرة فى سيناء ومصر وبلاد اليونان . وكان له أوقاف كثيرة فى بلاد الروس استولى عليها البلشفيون . له فى سيناء بساتين كثيرة وأديرة وكنائس ، وله أبنية فى القاهرة والإسكندرية والسويس ، ويقيم مطران سيناء فى القاهرة وقت الشتاء

وأعظم غلات الدير الآن ريع مائة فدان فى سرياقوس وهبها له عباس باشا الأول . وكان دخل الدير زهاء ستة آلاف جنيه نقصت كثيراً بعد استيلاء الروس على أوقافه

وينفق بعض الريع على أعراب سيناء ، يعطون الخبز كل يوم ولكل واحد من الأعراب الذين يقصدون الدير أن يأخذ الخبز

يوماً بعد يوم ، ثلاثة أرغفة لكل إنسان . وكان فى الدير رهبان كثيرون ثلاثمائة أو أكثر وهم الآن زهاء الأربعين .

— ٣ —

وفى صبيحة يوم الأربعاء ١٥ ذى الحجة (٢٣ يناير) سار معنا أحد الرهبان ليرينا بعض أبنية الدير فذهبنا إلى الكنيسة الكبرى : باب ضخم من الحديد ثم باب خشبى دقيق الصنع عتيق يقال إنه من عهد جُستنيان

ويلقى الداخل بهو كبير على جانبيه سفّان من عَمَد الجرانيت ثم رواقان وراء الأعمدة. وفى الكنيسة من النقش والتذهيب ومن الصور والألواح ما يُعيى الناظر إحصاؤه بله التأمل فيه ومعرفة دقائقه

ومما أذكر من هذه المناظر منبر إلى اليمين عليه صورة للدير واضحة ملوّنة ، وهى من تصوير الأب كرنارس الكريتى من مصورى القرن الثامن عشر الميلادى ؛ ومن الصور القديمة صورة للسيدة مريم تحمل عيسى عليه السلام ويقال إنها من صنع لوقا الإنجيلى ، وصورة أخرى يقال إنها صنع جستنيان

ويعلو هيكل الكنيسة عقد قد صور عليه المسيح والرسل والأنبياء بالفسيفساء فى جمال وإتقان الخ

ووراء هذه الكنيسة كنيسة صغيرة لسنت هيلانة وتسمى كنيسة العلّيقة ويقال إنها فى مكان شجرة العليق التى رأى فيها موسى عليه السلام النار ، وفى الجدار الشرقى كوة تقابل صدعا فى الجبل. وتدخل الشمس يوم ٢٣ مارس من الصدع إلى الكوة فتقع على مكان الشجرة . ووراء الجدار شجرة يزعمون أنها هى شجرة موسى ، ولكنى لم أرها

ويُلزم داخل هذه الكنيسة الصغيرة بخلع نعليه اقتداء بموسى عليه السلام فى القصة التى ذكرت فى القرآن الكريم: «فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى»

وخرجنا من الكنيسة إلى مشاهد أخرى منها مكتبة الدير وفيها كتب دينية كثيرة قليل منها باللغة العربية . وقد رأيت هناك تمثالاً لاسماعيل باشا الخديو فسرّنى جداً أن رأيته فى هذا المكان فشمرت أن سلطان مصر ممتد إلى هذا الدير

ثم رأينا مسجد الدير ، ولا ريب أن القارىء سيعجب حين يقرأ هذا التركيب المتناقض : « مسجد الدير » ، ولكنها حقيقة ، ففى الدير مسجد صغير ملاصق كنيسة صغيرة . وهو مسجد ساذج له منبر قديم قد وضعت عليه أعلام ضرر كشة جديدة مصنوعة فى مصر ؛ على السَّلم الأعلى « إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً » من فؤاد الأول . وعلى كل من العمدين الجانبيين : لا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله صادق الوعد الأمين . من فؤاد الأول . والتاريخ ١٣٤٩

منظر فى الدير تظهر فيه مئذنة المسجد

وفى جانب المسجد مئذنة عليها كوتا ضريحين مصنوعتان فى مصر أيضاً أهداها الملك فؤاد رحمه الله ؛ إحداها لقبر النبى هرون والأخرى لقبر النبى صالح ، وتؤخذان فى مواسم الزيارة ، ثم تردان إلى الدير فتحفظان فى المسجد

وبجانب المسجد مئذنة مربعة لها سلم خشبى وفيها ثلاث طبقات أو أربع صعدت فيها مع بعض الرفاق وشاقنى الأذان هناك فأذّنت، ولعل هذا الأذان كان إيناساً لهذا المسجد المطل المستوحش

وكنت قرأت فى كتاب نعوم شقير عن سيناء، أن على منبر هذا المسجد كتابة قديمة ، وأن فيه كرسياً قديماً ، ولكنى لم أجد الكتابة ولا الكرسى، فسألت الطران، فقال: حفظناها فى المكتبة. ولست أدرى لماذا لم يحفظا فى موضعهما من المسجد . وكان المرحوم أحمد زكى باشا زار الدير ونسخ الكتابة التى على المنبر والكرسى . فأما الكتابة الكوفية التى على المنبر فهى مصورة فى كتاب شقير ، وهذا نصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير. نصر من الله وفتح قريب، لعبدالله ووليّه أبى على المنصور، الإمام الآمر بأحكام الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المنتصرين